

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد
أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

الملك

١٣١٥

ؤتاهم الله أولادهم أولو الألباب
ؤتاهم الله أولادهم أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: إن الإسلام صديق و ٣٣ منار ٥ كمنار الطريق

مصر سلخ ذي القعدة ١٣٣٢ هـ ق ٣٥ الخريف الثاني ١٢٩٣ هـ ش ١٩ اكتوبر ١٩١٤

صفات الباري تعالى

تحقيق الحق في مذاهب السلف واختلاف الخلف فيها

فتوى للإمام الشوكاني رحمه الله تعالى

اعلم ان الكلام في الآيات والاحاديث الواردة في الصفات قد طالت ذبوله، وتشعبت أطرافه، وتباينت فيه المذاهب، وتفاوتت فيه الطرائق، وتخالفت النحل. وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين الى العلم حيث أوقفهم الله، ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر الله بعلمه، حتى تفرقوا فرقاء وتشعبوا شعبا، وصاروا أحزابا، وكانوا في البداية ومحاوله الوصول الى ما يتصورونه من العامة مختلفي المقاصد متبايني المطالب

فطائفة وهي أخف هذه الطوائف المتكافئة علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمه أسماء وأقلها عقوبة وجراما، وهي التي أرادت الوصول الى الحق والوقوف على الصواب، لكن سلكت في طلبه طريقة متوعرة، وصعدت في الكشف عنه الى عقبة كؤود، لا يرجع من سلكها سائلا فضلا عن أن يظفر فيها بمطوب صحيح. ومع هذا أصابوا أصولا ظنوها حقا، فدفعوا بها آيات قرآنية، وأحاديث صحيحة نبوية، واعتلوا في ذلك الدفع بشبهة واهية، وحالات مختلفة

وهؤلاء هم طائفتان الطائفة الأولى هي الطائفة التي غلت في التنزيه فوصلت الى حد يقشر عنده الجلد، ويضطرب له القلب، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أو ضح من شمس النهار، وأظهور من فلق الصباح، وظنوا هذا من صديعهم موافقا للحق. وطابقا لما يريد الله سبحانه، فضلوا الطريق المستقيمة وأضلوا من رام سلوكي.

والطائفة الأخرى هي طائفة التي غلت في إثبات القدرة فلما بلغ الى حد أنه لا تأثير لغيره، ولا اعتبار له سواه، وأفضى ذلك الى إيلام الخضم، والقسر للخالص

فلم يبق لبعثة الرسل وانزال الكتب كبير فائدة، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة؛ وجاؤا بتأويلات للآيات البينات، ومحاولات لحجج الله الواضحات، فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والاضلال، مع ان كلا المقصدين صحيح، ووجه كل منهما صحيح، لولا ما شأنه من الغلو القبيح.

وطائفة توسطت^(١) ورامت الجمع بين الضب والنون، وظنت انها قد وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق في زعمها، وتبجول على الأخرى وتصول بما ظفرت به مما يوافق مذهبها إليه، وكل حزب بما لديهم فرحون، وعند الله تلتقي الخصوم

ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم، فكان غاية ما ظفروا به من هذه العلمية بطريق الخلف ان تمنى محققهم وأذكيائهم في آخر أمرهم دين العجائز، وقالوا هنياً للعامة؛ فتدبر هذه العلمية التي كان حاصلها أن يهنا من ظفر لاهل الجهل (؟) البسيط، ويتمنى أنه في عدادهم، ومن تدين بدينهم، ويمشى على طريقهم. فان هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة، على أن هذه العلمية التي طلبوها الجهل خير منها بكثير. فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه ان الجهل خير منه، ويتمنى عند البلوغ الى غايته، والوصول الى نهايته، ان يكون جاهلاً به، عاطلاً عنه؟ ففي هذا عبرة للمعتبرين، وآية بينة للناظرين، فهلا عملوا على جهل هذا المعارف التي دخلوا فيها باديء بدء، وساءوا من تبعاتها، وأراحوا أنفسهم من تعبها، وقالوا كما قال القائل:

رأى الأمر يفضي الى آخر فسير آخره أولاً

ورجحوا الخلوص من هذا التمني والسلامة من هذه التهنئة للعامة؛ فان العاقل لا يتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها، ولا يهني لمن هو مثله أو دونه، بل لا يكون ذلك الا لمن رتبته أرفع من رتبته، ومكانه أعلى من مكانه، فيالله العجب من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه، وأفضل مقدارا بالنسبة إليه؛ وهل سمع السامعون بمثل هذه القرية أو نقل الناقلون ما يماثلها أو يشابهها

(١) هي فرقة الأشعرية التي توسطت بين المعتزلة والجبرية السابق ذكرها

وإذا كان حال هذه الطائفة^(١) التي قد عرفناك أنها أخف الطوائف تكلفا، وأقلها تبعة فما ظنك بما عداها من الطوائف التي قد ظهر فساد مقاصدها، وتبين بطلان مواردها ومصادرها، كالطوائف التي أرادت بالمظاهر التي تظاهرت به كإياد الإسلام وأهله، والسعي في التشكيك فيه، بإيراد الشبه وتقرير الأمور المفضية إلى التمدح في الدين وتغفير أهله عنه^(٢)

وعند هذا تعلم أن خير الأمور السالفات على الهدى، وشر الأمور المحدثات البدائع^(٣)؛ وإن الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة، هو ما كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وقد كانوا رحمهم الله تعالى وأرشدنا إلى الاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، يرون آيات الصفات على ظاهرها، ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون، ولا يحرفون ولا يأولون، وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم، والمتقرر من مذاهبتهم، لا يشك فيه شك، ولا ينكره منكر، ولا يجادل فيه مجادل، وإن نزغ من بينهم نازغ، أو نجم في عصرهم نجم، أوضحوا للناس أمره، وبينوا لهم أنه على ضلالة، وصرحوا بذلك في الجامع والمحافل، وحذروا الناس من بدعته، كما كان منهم لما ظهر معبد الجهني وأصحابه وقالوا «ان الأمر أنف»^(٤) فتبرؤا منه، وبينوا ضلالاته وبطلان عقائده للناس، فحذروه، إلا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة

وهكذا كان من بعدهم يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ويحذرهم منها، كما فعله التابعون رحمهم الله بالجمع بن درهم ومن قال بقوله واتحل نحلته الباطلة^(٥)

ثم ما زالوا هكذا لا يستطيع المتدع في الصفات أن يتظاهر بدعته، بل

(١) الأشعرية (٢) هذا وصف طوائف الباطنية كالإسماعيلية والبايية

(٣) هذا بيت شعر أوله: وخير الأمور الخ جعله نثرا

(٤) أنف بضمين أي مستأنف جديد، يعني أن أفعال الباري تعالى ليست

بقدر سابق، ولا نظام اقتضت الحكمة، وإنما يتبدى كل فعل ابتداء، وهم القدرية أي منكرو القدر

(٥) هم الجهمية منكرو الصفات الإلهية

يتكتمون بها كما يتكتم الزنادقة بكفرهم. وهكذا سائر المبتدعين في الدين على اختلاف البدع وتفاوت المقالات الباطلة

ولكننا تقتصر ههنا على الكلام في هذه المسئلة التي ورد السؤال عنها وهي مسئلة الصفات وما كان من المتكافين علم ما لم يأذن الله بأن يعلموه، وبيان ان اصرار آيات الصفات على ظاهرها هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وان كل من اراد من نزاع المتكافين، وشذاذ المحرفين المتأولين، أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر، قاموا عليه وحذروا الناس منه . وبينوا لهم انه على خلاف ما عليه اهل الاسلام

فصار المبتدعون في الصفات، القائلون بأقوال تخالف ما عليه السواد الاعظم من الصحابة والتابعين، وتابعيهم في خبايا وزوايا لا يتصل بهم الا مغرور، ولا ينذع بزخارف اقوالهم الا مخدوع، وهم مع ذلك على تخوف من اهل الاسلام، وترقب لتزول مكروه بهم من حماة الدين، من العلماء الهادين، والرؤساء والسلاطين، حتى نجم نجم المحنة، و برق بأرق الشر من جهة الدولة، ومن لهم في الامر والنهي والاصدار والايراد أعظم صولة . وذلك في الدولة المأمونية بسبب قاضيها أحمد بن أبي دواد . فعند ذلك أطلع المنكمشون في تلك الزوايا رؤسهم، وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم، وأعلنوا مذاهبهم الزائفة، وبدعهم المضلة، ودعوا الناس اليها، وجادلوا عنها، وناخلوا المخالفين لها، حتى اختلط المعروف بالمنكر، واشتبه على العامة الحق بالباطل، والسنة بالبدعة

ولما كان الله سبحانه قد تكفل باظهار دينه على الدين كله وحفظه عن التعريف والتغيير والتبديل، أوجد من علماء الكتاب والسنة لهم في كل عصر من العصور من يبين للناس دينهم، وينسك على أهل البدع بدعهم، فكان لهم - والله الحمد - المقامات المحموده، والمواقف المشهورة، في نصر الدين، وهتك المبتدعين

وبهذا الكلام القليل الذي ذكرناه نعرف أن مذهب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم هو اصرار آيات الصفات على ظاهرها، من دون تحريف لها، ولا تأويل متعسف لشيء منها، ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل، يفضي اليه كثير من

(المنار - ج ١١ م ١٧) سيرة السلف وهديمهم والمذاهب المبتدعة بعلمهم ٨٢١

التأويل. وكانوا اذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل، وأمسكوا عن القال والقليل، وقالوا قال الله هكذا ولا ندرى بما سوى ذلك، ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاورته، فان أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجره عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول اليه، الا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه. وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحفظه التابعون عن الصحابة، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين.

وكان في هذه القرون الماضية، الكلمة في الصفات متحدة، والطريقة لهم جميعا متفقة، وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به، وكلفهم القيام بفرائضه، من الايمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد، وانفاق الأموال في أنواع البر، وطلب العلم النافع، وارشاد الناس الى الخير على اختلاف أنواعه، والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاختصاص بحسب الاستطاعة، وبما تبلغ اليه القدرة، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله به، ولا تعبدتهم بالوقوف على حقيقته، فكان الدين اذ ذاك صافيا عن كدر البدع، خالصا عن شوب قدر التمدد.

فعلى هذا النمط كان الصحابة والتابعون وتابعوهم، وبهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدوا، وبأعماله وأقواله اقتدوا، فن قال انهم تابسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات أو غيرها، فقد أعظم عليهم الفرية، وليس بمتبول في ذلك، فان تقول الأئمة المطاعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الاثبات، ترد عليه وعاليمهم وتدفع في وجهه.

يعلم ذلك كل من له علم، ويعرفه كل عارف، فاشدد يديك على هذا. واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الدين يلوونهم ثم الدين يلوونهم، ودع عنك ما حدث من تلك المذاهب في الصفات وأرجح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها، وجعلوها أصلا يرد اليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فان واقفاها

٨٢٢ جعل المذاهب أصولا يرد اليها وبها الكتاب والسنة (المنار—ج ١١ م ١٧)

فقد وافقا الاصول المقررة في زعمهم ، وان خالفها فقد خالفا الاصول المقررة في زعمهم ، ويجعلون الموافق لها من قسم المتبول والمحكم ، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه ؛ ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى . أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح ، لم يبالوا به ولا رفعوا اليه ، ووسمهم ، ولا عدوه شيئا . ومن كان منكرا لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام . فانه سيقف على الحقيقة ويسلم هذه الجملة ولا يتردد فيها

ومن العجب العجيب ، والنبا الغريب ، ان تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام ، التي جعلها من بعدهم أصولا ، لا مستند لها الا مجرد الدعوى على العقل ، والغرية على الفطرة ، وكل فرد من أفرادها تنازعت فيه عقولهم ، وتخالفت فيه ادراكاتهم ، فهذا يقول حكم العقل في هذا كذا . وهذا يقول حكم العقل في هذا كذا . ثم يأتي بعدهم من يجعل ذلك الذي يعقله من يقلده ويقتدي به أصلا يرجع اليه ، ومعيارا لكلام الله وكلام رسوله ، يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه . فيأله ويألم المسلمين ! ويألعلماء الدين ! من هذه الفواقير الموحشة التي لم يصب الاسلام وأهله بمثلا ؟

وأغرب من هذا وأعجب وأشنع وأفظع ، أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات التي تعقلوها — على اختلافهم فيها ، وتناقضهم في معتولاتها — أصولا ترد اليها أدلة الكتاب والسنة ، جعلوها أيضا معيارا لصفات الرب سبحانه ، فما تعقله هذا من صفات الله قال به جزما ، وما تعقله خصمه منها قطع به . فأثبتوا لله الشيء ، ونقيضه ، استدلالا بما حكمت به في صفات الله عقولهم الفاسدة وتناقضت في شأنه ، ولم يلتفتوا الى ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ بل ان وجدوا ذلك موافقا لما تعقلوه جعلوه مؤيدا له ومقويا ، وقالوا قد ورد دليل السمع ، مطابقا لدليل العقل ؛ وان وجدوه مخالفا لما تعقلوه جعلوه واردا على خلاف الاصل ، ومتشابهها وغير معقول المعنى ، ولا ظاهر الدلالة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم . فافتري على عقله ، بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلا يرد اليه أدلة الكتاب والسنة ، وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده ، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقا له عنده

فكان حاصل كلام هؤلاء أنهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه ، وكفالك بهذا

وليس بعده شيء ، وعندده يتعثر القلم حياء من الله عز وجل
وربما استبعد هذا مستبعد ، واستكبره مستكبر ، وقال ان في كلامي هذا مبالغة
وتهويل ، وتشنيعا وتطويلا ، وان الامر ايسر من ان يكون حاصله هذا الحاصل الذي
ذكرت ، وثمرته مثل هذه الثمرة التي أشرت اليها . فأقول : * خذ جملة البلوى ودع
تفصيلها * واسمع ما يصك سمعك ، ولولا هذا الالحاح منك ما سمعته ولا جرى القلم بمثله
هذا أبو علي (١) وهو رأس من رءوسهم ، وركن من أركانهم ، واسطوانة من
أساطينهم ، قد حكى عنه الكبار منهم ، وآخر من حكى ذلك عنه صاحب شرح
القلائد - يقول : والله لا يعلم الله من نفسه الا ما يعلم هو !! فخذ هذا التصريح ، حيث
لم تكف بذلك التلويح ، وانظر هذه الجرأة على الله التي ليس بعدها جرأة ،
في الأمام أبي علي الويل ! أينق بمثل هذا النهيق ، ويدخل نفسه في هذا المضيق؟ وهل
سمع السامعون بيمين أجز من هذا اليمين الملعونة؟ أو تقل الناقلون كلمة تقارب معنى
هذه الكلمة المفتونة؟ أو بلغ مفتخر الى ما بلغ اليه هذا المختال الفخور؟ أو وصل من
يفجر في ايمانه الى ما يقارب هذا الفجور؟ وكل عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف ان ابنه
أو أباه لا يعلم من نفسه الا ما يعلمه هو لكان كاذبا في يمينه فاجرا فيها . لأن كل فرد
من أفراد الناس ينطوي على صفات وقرائن لا يجب أن يطلع عليها غيره ، ويكره أن
يقف على شيء منها سواه . ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطر غيره ويستكن
في ضميره؟ ومن ادعى علم ذلك وانه يعلم من غيره من بني آدم ما يعلمه ذلك الغير
من نفسه ، ولا يعلم ذلك الغير من نفسه الا ما لا يعلمه هذا المدعي؟ فهو اما مصاب
العقل ، يهذي بما لا يدري ، ويتكلم بما لا يفهم ، أو كاذب شديد الكذب العظيم الاقتراء ،
فان هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه ، فهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما توسوس به
نفسه ، وما يسر عباده وما يعلنون ، وما يظهرون وما يكتمون ، كما أخبرنا بذلك في كتابه

(١) يعني الجبائي . وانما جاء بالشاهد من قول المعتزلة لفظاعته ولأن أهل وطنه (البن)
من الزيدية لا زالون يأخذون بأقوالهم . وما من فرقة من الفرق الا ولها شذوذ
في هذه المسائل ، حتى لم يسلم منه من سمو أنفسهم الأثرية أو الحنابلة ، فان منهم
من بالغ في الرد على غيره ، حتى قال ما لم يقله سلفه ، وكذلك الاشعرية الذين حاولوا
الجمع بين المأثور والمفقول

العزير في غير موضع. فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه الا الله سبحانه من عباده، فما ظنك بمن تجاوز هذا وتعداه وأقسم بالله ان الله لا يعلم من نفسه الا ما يعلمه هو؟ ولا يصح لنا ان نحمله على اختلال العقل؟ فلو كان مجنوناً لم يكن رأساً يقتدي بقوله جماعات من أهل عصره ومن جاء بعده، وينقلون كلامه في الدفاتر، ويحكون عنه في مقامات الاختلاف

ولعل أتباع هذا ومن يقتدي بمذهبه لو قال لهم قائل وأورد عليهم مورد قول الله عز وجل (ولا يحيطون به علماً - وقوله - ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) وقال لهم هذا يرد ما قاله صاحبهم ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مقتراة - لئالوا : هذا ونحوه مما يدل دلالاته ويفيد مفاده من المتشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالاصول المقررة

وبالجملة فاطالة ذبول الكلام في مثل هذا المقام اضاءة للاوقات ، واشتغال بحكاية الخرافات المبكيات لا المضحكات ؛ وليس مقصودنا ههنا الا ارشاد السائل الى أن المذهب الحق في الصفات هو امرارها على ظاهرها من دون تأويل ولا تحريف . ولا تكلف ولا تعسف ، ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل . وان ذلك هو مذهب السلف الصالح الصحابة والتابعين وتابعيهم

فان قلت: وماذا تريد بالتعطيل في مثل هذه العبارات التي تكررهما؟ فان أهل المذاهب الاسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه، ولا يصدق مناهه ويوجد مدلوله الا في طائفة من طوائف الكفار، وهم المنكرون للصانع (قلت) يا هذا ان كنت ممن له العلم بعلم الكلام، الذي اصطلح عليه طوائف من أهل الاسلام فانه لا محالة قد رأيت ما يقوله كثير منهم، ويدكرونه في مؤلفاتهم، ويحكونه عن أكابرهم، ان الله سبحانه وتعالى وتقدس لا هو جسم ولا جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه (١) فأنشدك الله أي عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي؟ وأي مبالغة في الدلالة على هذا النفي تقوم مقام هذه المبالغة؟ فكان «ولاء» في فرارهم من شبهة

(١) قولهم هذا له تنمة وهي: ولا هو متصل به ولا هو منفصل عنه. ولا مباين له ولا محايث له، ولا هو فينا ولا خارج عنا

التشبيه الى هذا التعطيل كما قال القائل:

فكنت كالساعي الى مشعب موثلا من سبل الراءد^(١)

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار، والمهارب من لسمة الزنبور الى لدغة الحية، أو من قرصة الغملة الى قضمة الاسد

وقد كان يفني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلمين كلتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه، وأنزلها على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وهما (ولا يحيطون به علما — و — ليس كمثل شيء) فان هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب، وتضمنتا ما يفنى أولى الالباب، السالكين في تلك الشعاب والمضاب، الصاعدين في متوعدات هاتيك العقاب

فالكلمة الاولى منها دلت دلالة بيّنة على ان كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق، ودعاوي التحقيق، فهو مشوب بشبهة من شعب الجهل، مخلوط بمخلوط هي منافية للعلم مباينة له، فان الله سبحانه قد أخبرنا انهم لا يحيطون به علما، فمن زعم ان ذاته كذا او صفته كذا، فلا شك ان صحة ذلك متوقفة على الاحاطة. وقد نفيت عن كل فرد، لأن هذه القضية هي في قوة: لا يحيط به فرد من الافراد علما، فكل قول من اقوال المتكلمين صادر عن جهل، اما من كل وجه او من بعض الوجوه، وما صدر عن جهل فهو مضاف الى جهل، ولا سيما اذا كان في ذات الله وصفاته، فان في ذلك من المخاطرة بالدين ما لم يكن في غيره من المسائل، وهذا يعلمه كل ذي علم ويعرفه كل عارف، ولم يحظ بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويتطف من ثمارها، الا المرون للصفات على ظاهرها، المريحون انفسهم عن التكلمات والتعريفات، والتأويلات والتحريرات، وهم السلف الصالح كما عرفت، فهم لا يعرفوا بعدم الاحاطة ووقفوا انفسهم حيث اوقفها الله. وقالوا: الله اعلم بكيفية

(١) المتعب المكان الذي يتفجر منه الماء المجتمع في حوض ونحوه. والمواثيل اللابحى الى ما من يأمن به من ضرر أو شربحانه. والمعنى فكنت كالمهارب من مطر يحرفه الى سيل متفجر يحرفه. واعل «سبل» محرفة عن «سيله»

ذاته، وماهية صفاته، بل العلم كله له: وقالوا كما قال من قال، ممن اشتغل بطلب هذا المجال، فلم يظفر بغير القيل والقال:

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلاته يتعمق
مالاتراب والعلوم وانما يسمى ليظلم انه لا يعلم
بل اعترف كثير من هؤلاء المتكافين بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنومه
بما قنع به السلف الصالح الا مجرد الخبرة التي وجد عليها غيره من المتكافين فقال:
وقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرقي بين تلك المعالم
فلم ار الا واضما كف حائر على ذقن او قارعا سنّ نادم

**

وها أنا (ذا) اخبرك عن نفسي، واوضح لك ما وقعت فيه في امسي، فاني ايام الطلب
وعنفوان الشباب، شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد،
وتارة علم اصول الدين؛ واكبت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ودمت الرجوع
بمائدة، والعود بمائدة، فلم اظفر من ذلك بغير الخيبة والخيرة؛ وكان ذلك من
الاسباب التي حبت اليّ مذهب السلف. على اني كنت من قبل ذلك عليه، ولكن
أردت أن ازداد فيه بصيرة وبه شفاء، وقلت عند النظر في تلك المذاهب:

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين خيرة فما علم من لم يلق غير التحير
على انني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبهر

**

وأما الكلمة الثانية وهي (ليس كمثل شيء) فيها استفاد نفي المماثلة في كل شيء. فيدفع
بهذه الآية في وجه المجسمة، ويعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير،
وعند ذكر السمع والبصر واليد والامتواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه القرآن والسنة،
فيتقرر بذلك الاثبات لتلك الصفات، لاعلى وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات. فيدفع
به جانبي (١) الافراط والتفريط، وهما المبالغة في الاثبات المنفي الى التجسيم، والمبالغة

(١) كذا والصواب « جانبا » لانه فاعل يندفع، الا ان يكون في الكلام

فص سقط به فاعل يندفع

في النفي المفضية الى التعطيل، فيخرج من بين الجانبين، وغلو الطرفين، حتى مذهب السلف الصالح، وهو قولهم بإثبات ما أثبت لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه الا هو، فانه القائل (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)

ومن جملة الصفات التي أمرها السلف على ظاهرها وأجروها على ما جاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل، صفة الاستواء التي ذكرها السائل فاتهم يقولون نحن ثبت ما أثبتته الله لنفسه، من استوائه على عرشه، على هيئة لا يعلمها الا هو، وفي كيفية لا يدري بها سواه^(١) ولا تكلف أنفسنا غير هذا، فليس كمثل شيء لاني ذاته ولا في صفاته، ولا يحيط عباده به علما

وهكذا يقولون في مسألة الجهة التي ذكرها السائل وأشار الى بعض ما فيه دليل عليها. والادلة في ذلك طويلة كثيرة في الكتاب والسنة، وقد جمع أهل العلم منها - لاسيما أهل الحديث - مباحث طوّلوا بها بذكريات قرآنية وأحاديث صحيحة، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط في مجلد جمعه مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب^(٢) والمسئلة أوضح من أن تلتبس على عارف، وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الاسلامية، كثر الكلام فيها وفي مسألة الاستواء وطال، خصوصا بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب. فلهم في ذلك تلك الفتن الكبرى، والملاحم العظمى، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر

(١) انما يذكر لفظ الهيئة والكيفية في هذا المقام كما يذكر لفظ الصفة، بناء على ان ما يستعمل في الكلام عن الباري تعالى من الالفاظ انما يشار بها اشارة الى المعنى الشريف الذي يعرفه الخلق من أنفسهم مع نفي التشبيه والتشليل من كل وجه بناء على ما ثبت من تنزيهه عقلا وتقلا. ومن العلماء من يعبر عن مذهب السلف بنفي الكيف لا باثباته مع نفي العلم به، وهو ما عبروا عنه باللكفة المنحوتة من قولهم: بلا كيف

(٢) قد طبع هذا الكتاب في مطبعة المنار. وفيه أيضا ما نقل عن أشهر علماء السلف ومن بعدهم من كبار الفقهاء والمتكلمين في اثبات الصفات

والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح : فالاستواء على العرش ،
والكون في تلك الجهة، قد صرح به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ؛
ويطول نشرها ، وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير
حديث ، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد المسلمين في نفسه ، ويحسه في فطرته ،
وتجذبه اليه طبيعته ، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه ، والتجأ اليه ووجه أذعيته
الى جنبه الرفيع ، وعزه المنيع . فانه يشير عند ذلك بكفه ، أو يرمي الى السماء بطرفه ،
ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء ، وحدثت بواعث الاستغاثة ، ووجود
مقتضيات النزاع ، وظهور دواعي الالتجاء ، عالم الناس وجاهلهم ، والمأشئ على طريقة
السلف ، والمتدي بأهل التأويل ، القائلين بأن الاستواء هو الاستيلاء — كما قاله
جمهور المتأولين — أو الاقبال — كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب والزجاج والقراء
وغيرهم — أو كناية عن الملك والسلطان ^(١) — كما قاله آخرون — فالسلامة والنجاة
في امرار ذلك على الظاهر والاذعان بالاستواء والسكون ^(٢) على ما نطق به الكتاب
والسنة من دون تكيف ولا تكلف ولا قيل ولا قال ، ولا فضول في شيء من

(١) هذا القول لا يناق في إمرار اللفظ على ظاهره ، والتسامح باستواء يليق بالرب
ويفوض اليه علم كنهه ، لان الكناية لا تناق في الحقيقة كما يناقها المجاز عند الجمهور
المالعين من جمعه معها . فذكر الاستواء في القرآن في سياق خلق السموات والارض
يفيد معنى القيام بأمر الملك وتديره ، وصرح به في سورة يونس فقال (١٠ : ٣) استوى
على العرش يدبر الامر) وهذا المعنى هو الذي يتبادر الى فهم كل عربي قبح من كلمة
استوى فلان على عرش الروم أو الفرس مثلا . فهو لا يفكر عند سماع الكلمة في
كيفية الكرسي الخاص ملك تلك البلاد ، ولا في كيفية جلوس الملك عليه . وإنما
يفكر في المراد من هذا التعبير . ولو ان خادما من خدم قصر الملك جالس على عرشه
عند تنظيف الحجرة التي هو فيها لا يقال فيه انه استوى على عرش تلك المملكة . فاذا
قلنا انه ينبغي لنا في تدرجات الاستواء على العرش ان نفكر في لازم الاستواء وهو
الاتقاراد بالملك والسلطان والتدبير ، لم نكن بذلك متأولين والآيات ، ولا خارجين عن
عن مذهب السلف في امرارها كما جاءت ، من غير ان نجيز لأنفسنا البحث عن كيفية
ذلك الاستواء من حيث معناه الحقيقي

(٢) لعله سقط من ههنا « في جهة العلو »

المقال ، فمن جاوز هذا المقدار بافراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ولا واقف في طريق النجاة ، ولا معتصم عن الخطأ ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة وكما تقول هكذا في الاستواء والكون في تلك الجهة فنكذا تقول في مثل قوله سبحانه (وهو معكم أينما كنتم - وقوله - ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم) وفي نحو (ان الله مع الصابرين - ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) الى ما يشابه ذلك ويمثله ويقاربه ويضارعه ، فيقول في مثل هذه الآيات: هكذا جاء القرآن ان الله سبحانه مع هؤلاء ، وتكلف بتأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا السكون وهذه المعية هو كون العلم ومعيته ، فان هذه شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف ، وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم (١)

واذا انتهيت الى السلا مة في مداك فلا تجاوز

وهذا الحق ليس به خفاء فدعني من بُنيات الطريق

وقد هلك المنتطعون ، ولا يهلك على الله الا هالك وعلى نفسها براقش تجني . وفي هذه الجملة وان كانت قليلة ما يعني من يشح بدينه ويحرص عليه عن تطويل المقال وتكثير ذبوله ، وتوسيع دائرة فروعه وأصوله . والمهدي من هداه الله ، والله أعلم . انتهى

فتاوى المنار

(س ٢٣ و ٢٤) من صاحب الامضاء الرمزي في سمبس برنيو (جاوه)

حضرة العلامة الكبير ، والامام الجليل ، استاذنا السيد محمد رشيد رضا صاحب

المنار الاخر نفني الله والمسلمين بوجوده الشريف آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فيا سيدي الاستاذ نرجو من فضيلتكم

التكرم علي بأن تجيبوني عن الاسئلة الآتي ذكرها جوابا مقنعا ولكم الفضل والشكر وهي :

(١) ورد عن الامام أحمد وغيره من علماء السلف جعل المعية بمعنى العلم فصار هذا التأويل مما يعترف به الحنابلة والأربون ، وانما ألجأهم اليه رد قول الجهمية وغيرهم انه تعالى في كل مكان . وقد نقل الذهبي ذلك في كتابه المشار اليه آنفاً عن كثيرين

هذا وأرجو فضيلتكم بيان هذه المسائل على قاعدة (درء المفسد مقدم على جلب المصالح) (م . ب . ع)

(تحليف القاضي والشهود)

(ج) القول بأن تحليف القاضي والشهود لا يجوز شرعاً لما ذكر من العلل — لم يظهر لنا وجه صحته، فقولهم: ان ذلك مما ياباه منصبهما، — لانعرف له مستنداً في الكتاب والسنة، وما يليق بالمنصب وما لا يليق به ليس أمراً ثابتاً مطرداً دائماً، بل هو مما يختلف باختلاف العرف والعادة ويتغير آناً بعد آناً، كما يهد من الناس في الامكنة المختلفة والازمان. مثال ذلك ان العرف والعادة في مصر والآستانة والشام ان لا يخرج القاضي الشرعي والمفتي وكبار العلماء الى زيارة أحد بغير عمامة، وهذه عادة قديمة حتى عد بعض العلماء من اعداء ترك الجمعة والجماعة فقد الهامة الثلاثة بأشكال هؤلاء. ولكن هذه العادة لا تلازم في الهند فقد يخرج كبار العلماء من بيوتهم الى زيارة بعض الاخوان بغير عمامة، وانما يضعون على رؤسهم نوعاً من الكفات الرقيقة (الكفة بالضم شيء مستدير يوضع على الرأس ومنه ما يسمى في مصر طاوية وفي غيرها عراقية) وقد ورد ان النبي (ص) خرج مع بعض أصحابه لزيارة وليس على رؤسهم شيء .

وقولهم ان التحليف كالطعن في الشهادة أو الحكم فممنوع، وقد يقال انه تأكيد لها . وأما قولهم ان القاضي والشاهد يمتنعان من القضاء والشهادة اذا علما أنهما يحلفان، فهو من النظريات المقوضة بما عليه عمل كثير من الامم الآن. فالحكومة العثمانية والحكومة المصرية قد جرتا على تحليف الشهود ولم يمتنعوا، وعلى تحليف من تسند اليهم المناصب الكبيرة يمين الاخلاص لرئيس الحكومة (السلطان) ولو قالوا ان التحليف لمن ذكر لا يجب شرعاً لما وجدنا الى مخالفتهم سبيلاً، ولكن نفي الجواز لا يسلم الا بدليل شرعي

هذا وان لنا أكيد الشهود شهادتهما بالقسم أصلاً في القرآن كما ترى في شهادة الوصية (فيقسمان بالله ان ارتبتم لانشري به نمناً — فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) وقد قال تعالى بعد بيان أحكام هذه الشهادة معللاًها (ذلك أدنى